# الباب الثامن

## التربية التهذيبية فى القرن السابع عشر

من المربين من يذهب إلى أن كل فن أو علم لا تكون لدراسته فائدة عملية ظاهرة فى مستقبل حياة التلميذ ، لا يسوغ إدخاله فى منهاج الدراسة ، ولا يليق أن تنفق فى تحصيله أوقات التلاميذ . ومنهم من يرى أن تهذيب العقل وتنمية المدارك أولى وأجدر بالعناية من الفائدة العملية ، وقد ذهب هؤلاء الى أن كل علم تقوّم دراسته من عقل الإنسان وتساعد على تنمية قواه الفكرية ، يسوغ ادخاله فى مناهج الدراسة وإن لم تكن له منفعة عملية فى الحياة . وأشياع هذا الرأى يسمّون أنصار المذهب التهذيبى فى التربية .

### أصل المذهب التهذيبى ونشأته

فى القرون الوسطى وكذلك فى أوائل أزمان النهضة الأدبية ، كانت عناية المربين شديدة بتعليم اللغة اللاتينية لما كان لها من المنفعة العملية الظاهرة ، فقد كانت لغة الدين والسياسة ، وكانت كنز العلوم والمعارف السائدة فى هاتيك العصور ، فالآداب والسياسة والعلوم الطبعية والدينية كلها كانت مدونة بها ، ولم تكن ثمة سبيل إلى تحصيلها لمن يجهل هذه اللغة . ولما ضعفت سيطرة الكنيسة ووهن سلطانها ، وأقبل الناس على تعلم لغاتهم الوطنية ، وقامت نهضة العلوم الطبعية فى القرن السابع عشر ، لم تبق منفعة عملية لدراسة هـذه اللغة ، وبطلت حجة الذين انتصروا لها أزمانًا ؛ ولكن عز على القوم أن يترك الناس تعلمها وأن تضيع بينهم هذه اللغة وقد امتزج حبها بلحومهم ودمائهم ، فلجئوا الى عقيدة المنفعة التهذيبية المؤسسة على ما ذهب اليه إرسطو قديما من أن للنفس قوى مستقلة متميزة ، يستطاع تهذيب كل واحدة منها بأنواع خاصة من الأعمال والتمرينات ، وقالوا إن لدراسة اللغة اللاتينية من النتائج الباهرة ما لايقاس به كل جهد

يُبْذل فى سبيل تحصيلها ، وإنها تكسب الانسان قوة فكرية يستطيع الانتفاع بها فى كل وجه من وجوه الحياة . ولم يمض على ذلك إلا يسير حتى اتُّخذت هذه الحجة نفسها لإدخال اللغة الإغريقية والرياضة فى مناهج الدراسة ، فقد قالوا إن الرياضة ترهف فى الانسان قوة الاستدلال ، وإن دراسة اللغات القديمة تنمى قوة الحفظ والذكر فيه . وقد ذهب أشياع هـذا المذهب إلى أنه يجب على كل إنسان أن يدرس هذه العلوم المتقدمة من غير أن ينظر إلى علاقتها بحياته العملية أو يفكر فى مبلغ ميله إليها ، لأنه بدراسته إياها يُعِدُّ نفسه أحسن إعداد للضرب فى سبيل الحياة ، ويكسب عقله قوة تنجده اذا أشكل عليه الأمر ، وترشده إذا أظلم أمامه النهج . أما هؤلاء الذين قصر بهم الذكاء عن تحصيل هذه العلوم ، فلن يكون لهم فى مستقبل الحياة غَناء فيما يسند اليهم من الأعمال الجسام .

### تأثير هذا المذهب فى التربية ومظاهرها

كان لهذا المذهب تأثير عظيم فى كل مرتبة من مراتب التربية ، وفى كل مملكة وفى كل عصر الى قبيل العصر الحاضر . يدلك على ذلك أن كثيراً من أنصار العلوم الطبعية لما أرادوا إقناع خصومهم بضرورة ادخالها فى مناهج التعليم لجئوا الى فوائدها التهذيبية تاركين الفوائد العملية جانباً ؛ قال كومب : « انى لا أحرص كثيراً على دراسة الكيمياء مثلاً من أجل ذاتها ، وانما أحرص عليها كل الحرص لأنى أرى فى دراستها تهذيباً للعقول وتنمية للمدارك » . وقال يُومَن : « ان تهذيب العقول أغلى شىء يحرص عليه الإنسان و إن العلوم الطبعية لهى الكفيلة بإدراكه اذا اتخذت أساساً للتربية والتعليم » .

أما تأثير هذا المذهب فى المعاهد العلمية فقد كان عظيما جدًّا ، ونظرة واحدة الى مناهج الدراسة فى المدارس والجامعات الانجليزية والألمانية تكفيك فى معرفة ذلك ، فقد كانت هذه المناهج لا تخرج عن دائرة العلوم الرياضية واللغتين الإغريقية واللاتينية .

## جون لوك

هو أكبر أشياع المذهب التهذيبي فى التربية ، وأشهر فلاسفة الانجليز فى عصره ، ولد سنة ١٦٣٢ فى « رنجتون » بالقرب من مدينة برستول ، ودرس علومه فى مدرسة « وِسْتْمِنِسْتَر » بلندره ومدرسة المسيح باكسفورد ، وقد مالت نفسه من الصغر الى علم الطب فأقبل عليه إقبالاً شديداً ، وصرف فى تحصيله كثيراً من أوقاته وجهوده ، واستمر فى مدارسته ومعاناته الى آخر أيامه ، فلا غرو أن أصبح وحيد عصره فى هذه الصناعة .

أقبل جون لوك على التأليف والتدوين ، واشتغل بالفلسفة وبحث فى شئون التربية فظهرت له مؤلفات نادرة المثال ، منها رسالته التى سماها « العقل الانسانى » ، وقد انتشرت بين الملأ انتشاراً سريعاً ، وتحدث بها كل غاد ورائح ، الاَّ أن الناس فى اكسفورد قابلوها بكل جفاء ، وبذلوا جهد استطاعتهم فى إطفاء نورها فلم يفلحوا ، وغاية ما استطاعوا أن قام رؤساء الأقسام فى الجامعة ومنعوا الطلاب من قراءتها والنظر فيها ، لأنها تضمنت آراء فلسفية لم تكن معهودة لهم فى ذلك العصر ، كما تضمنت طعناً على أساليب التفكير والتعليم المسلوكة وقتئذٍ . أما فى كمبردج فقد كان ابتهاج القوم بها عظيماً ، ولقد أحلها الناس هناك مكاناً رفيعاً ، وبقيت بينهم أعواماً وهى مسرح أنظارهم وموضع إعجابهم . ولقد نالت بعد ذلك من الإقبال والتشجيع ما لم ينله كتاب . يدلك على ذلك أنها طبعت أربع مرات فى مدة لا تزيد على عشر سنوات ، ولم تمض سنة ١٧٤٨ حتى ظهرت منها الطبعة الثالثة عشرة . وقد ترجمت الى اللغة الفرنسية فكان لها تأثير كبير فى الفلسفتين الفرنسية والألمانية ، وطارت بذلك شهرة هذا الفيلسوف فى جميع أرجاء القارة الأوربية .

وفى سنة ١٦٩٣ ظهرت رسالته التى ضُمِّنت آراءه فى التربية ، وهى رسالة ممتعة مملوءة بالنصائح العملية المفيدة ، فأكبر الناس شأنها وانتفع بها كل من كتب بعده فى التربية من كتاب الانجليز وغيرهم من الأوربيين .

عكف « لوك » فى أواخر أيامه على دراسة الكتب المقدسة والتفكير فى الشئون

الدينية ، وعمّر أوقاته بتدوين آرائه ونتائج تفكيره . ولقد ترك آثاراً جمة نشرت للناس فانتفعوا بها أيما انتفاع ، ومن هذه الآثار مقالته المشهورة التى دعاها « أعمال العقل » ، وهى مقالة نادرة المثال يجب أن يقرأها كل معجب بآرائه ، فانها تعد تتمة لآرائه فى التربية ، وتطبيقاً عملياً لنظرياته المودعة فى رسالة العقل الانسانى .

توفى لوك سنة ١٧٠٤ ففقد الناس بموته إماماً من أئمة التربية ، وبطلا من أبطال الفلسفة ، ومثالاً عالياً من أمثلة الفضيلة والآداب الرفيعة . كان فى جميع حالاته محبوب العشرة مألوف الصحبة ، لم يعرفه صديق إلا اغتبط بصحبته وابتهج بمودته ؛ لم يغضب مرة على أحد لأنه خالفه فى رأيه أو ذهب الى غير مذهبه . وكان فى كل الأمور حقيرها وعظيمها يخضع للحجة وينقاد للبرهان ، فاذا حاجهُ إنسان وأقنعه بالرجوع الى العقل ، انقاد له ولو كان أصغر الناس قدراً وأقلهم شأناً ؛ ولا عجب فى ذلك فقد كان اكثر الناس إخلاصاً ومحبة للحق ، يبحث وراءه وينشده حيث وجده .

## مكانته بين المربين

أجمع المؤرخون على أنهُ لم يكن بين من كتب فى التربية من الإنجليز أفضل منهُ ، فهو أبعدهم صيتاً وأبلغهم تأثيراً فى وجوه التربية ، وإنا لا ننصفه اذا ساوينا بينهُ وبين النابغتين أسكام وسبنسر صاحبى الآراء الصائبة والمذاهب السديدة فى التربية ، فكلاهما أقل منهُ منزلة وشأناً . رجل هـذه منزلته بين المربين جدير بأن تشرئب الأعناق الى معرفة أفكاره وتتجه النفوس الى دراسة آرائه مستقلةً من غير أن ينظر الى علاقتها بمذهب من مذاهب التربية الشائعة فى أيامهِ . نعم ان لآراء لوك من المكانة السامية ما يدعو الى دراستها على هذا النحو ، الا أنا اذا بحثنا فيها بحثاً دقيقاً وجدنا أفكاره الرئيسة تتفق هى والمذهب التهذيبى كل الاتفاق ، ومن هنا كان أغلب المؤرخين يعدونهُ زعيماً من زعماء هذا المذهب ونصيراً من اكبر نصرائه . ولما كانت له آراء أخرى متفرقة فى كتبهِ ورسائله تشبه من بعض الوجوه آراء مونتين وروسو وغيرهما ، وهِمَ بعض المؤرخين فنسبوه الى غير مذهبهِ على ما سيأتى لك تفصيله .

### آراؤه فى تقسيم التربية وأغراضها

ذهب «لوك» فى رسالته التى سماها «بعض آراء فى التربية» الى تقسيم التربية أقساماً ثلاثة : جسمية ، وخلقية ، وعقلية ، وجعل لكل قسم منها غرضاً خاصًّا ، فالتربية الجسمية عنده ترمى الى تقوية الأبدان ونشاط الأجسام ، والتربية الخلقية ترمى إلى غرس الفضيلة فى النفوس ، أما التربية العقلية فمرماها تزويد العقول بأنواع المعارف والعلوم . وذهب الى أن التربية الجسمية أساس التربيتين الأخريين ، وأنها قِوام كل منهما ، وألا سبيل الى النجاح فيهما ما دام الجسم ضئيلا ضعيفًا .

### آراؤه فى التربية الجسمية

من أعظم الدلائل وأوضح الشواهد على صلة هذا البطل بالمذهب التهذيبى ، طريقة الاخشيشان التى نصح بها وأرشد اليها فى تربيته جسوم الأطفال ، فمن ذلك قوله : « ان أول ما يجب أن تتجه اليه عناية المربين ألا يغالوا فى تدفئة الأطفال بالملابس والأدثرة الثقيلة صيفًا وشتاءً ، فان الوجه عند الولادة لم يكن أقل إحساسًا أو أضعف تأثراً بظواهر الجو من بقية أعضاء البدن ، ولكن التعود وحده هو الذى أكسبه القوة على احتمال البرد ، فلو أن أعضاء البدن عامة عُوِّدت فى بدء أمرها أن تتعرض للظواهر الجوية كما عُوِّد الوجه ، لكانت جميعها مثله فى هذا التحمل ، فان العضو ينمو على ما عُوِّد » . ومن آرائه فى ذلك أن تُغسل أقدامُ الأطفال كل يوم بماء بارد ، وأن يختار لهم لبس النعال الرقيقة التى يتخللها الماء عند السير بها فى الأمطار . ومن وصاياه أن يشجع الأطفال على اللعب عراة الرءوس حفاة الأقدام فى الشمس والريح ، وأن يناموا على فراش خشن حتى لا يخلدوا الى الراحة والنعيم .

### آراؤه فى التربية الخلقية

الفضيلة عنده هى أهم أغراض التربية ، وله فى أخذ النشء بها طرق خاصة تدل على أنه يشايع أنصار المذهب التهذيبى ويرى رأيهم فى أن التربية تهذيب وتثقيف ، ومن ذلك قوله فى فاتحة مباحثه فى التربية الخلقية : « كما أن قوة الجسم إنما تكون بقدرته

على احتمال المشاق، كذلك قوة العقل إنما تكون فى ضبط النفس ومقاومة الشهوات » .
وقال فى موضع آخر : « من البدهيات عندى أن أساس الفضيلة أن يقتدر الإنسان على منع نفسه كثيراً مما تميل إليه وترغب فيه إذا لم يكن العقل رائدها وحاديها فى هـذه الميول والرغبات . أما طريق الحصول على هذه القدرة فإنما يكون بالتعود من الصغر ؛ ولذلك أنصح للمربين أن يأخذوا الأحداث بالمنع والحرمان ، ويحولوا بينهم وبين كثير مما يشتهون ، وعلى المربين أيضًا ألاَّ يقصّروا فى إفهام الأطفال وهم فى حداثة السن أنهم لا يخوَّلون شيئًا من رغائبهم من أجل أنه يكسبهم سروراً ، وإنما يخولونه لأنه نافع ومفيد » .

ولا يصعب على القارىء بعد هذا أن يتفهم أن التربية عند هذا الفيلسوف محض رياضة للنفس وتذليل لها فى كل وجه من وجوه الحياة الأدبية ، وهـذا هو المذهب التهذيبى الذى شرحناه .

### آراؤه فى التربية العقلية

ربما كانت آراؤه هنا أصرح شىء يدل على أنه من أشياع المذهب التهذيبى ، فقد قال : « ليس الغرض من التربية أن نخرج رجالاً نابغين متمكنين من العلوم ، وإنما الغرض منها أن نخرج رجالاً تفتقت أذهانهم وأُرهفت مداركهم إرهافًا ، بحيث يقتدرون على التفكير فى كل مسائل الحياة والتغلب على مصاعب الأمور . ولذلك أرى أن تتسع مناهج الدراسة وأن تمرن عقول التلاميذ تمرينًا كبيراً فى دائرة واسعة من الفنون والعلوم . ولا أريد بتوسيع مناهج الدراسة ملء أذهان التلاميذ بأنواع العلوم والمعارف وإنما أرمى الى تكوين عادة التفكير وحريته ، والى إنماء مداركهم واستثارة ما فيهم من النشاط العقلى » . وله مقالة طويلة قصر البحث فيها على نقطة واحدة ، وهى أن التربية العقلية يجب أن ترمى الى تكوين عادة التفكير فى الإنسان من طريق التمرين والتهذيب ؛ ومما قاله فى ذلك « إن القوى العقلية إنما تصلح وتنمو على ما فيه صلاح الإنسان بالطرق التى ينمو بها الجسم ، فاذا أردت من طفلك أن يجيد الخط أو التصوير

أو الرقص أو اللعب بالسيف والترس ، فاحتفظ بأن يكون أولاً مملوءا بالنشاط سهل الانعطاف خفيف الحركة حاذقاً ماهراً ، ولكن الطفل لا يصل الى ذلك إلاّ بالتعويد وانفاق الوقت الطويل والجهد العظيم فى تمرين يده وأخذ عضلاته بهذه الأعمال . كذلك الحال فى العقل فإذا أردت من الإنسان أن يجيد التفكير و يحسن الاستدلال ، فعليك أن تأخـذه بذلك فى الأوقات الملائمة ، فعوده من الصغر كيف يربط الأفكار بعضها ببعض وكيف يتتبع المعانى على حسب ترتيبها فى الوجود » .

أما رأيه فى موضوعات الدراسة فإنه يُوجب اختيار الموضوعات التى تصل بالإنسان الى هذه الغاية ، قال : «أحسن الموضوعات التى تصل بالانسان الى هـذه الغاية علوم الرياضة ، ولذلك أرى أن يؤخذ بها جميع المتعلمين إذا اتسع لهم الوقت وأتيحت لهم الفرصة ، ولا أريد بذلك أن يكونوا حاذقين متفقهين فى هذه العلوم ، و إنما أريد أن يخرجوا عقلاء مدبرين» . وقال فى موضع آخر « قد اخترت الرياضة ونصحت أن يؤخذ الأحداث جميعاً بها لا لأنى أريد أن يكون جميع الناس رياضيين ، ولكن لأنى أراها أقوم طريق فى غرس عادة التفكير الصحيح ، فاذا قويت مدارك الأحداث وغُرست فى نفوسهم هذه العادة ، صح لهم أن ينتقلوا الى دراسة فروع أخرى كما يشاءون» .

## اختلاف المؤرخين فى مذهب لوك

اختلف المؤرخون كثيراً فى مذهب هذا الفيلسُوف فى التربية . فمنهم من عده من أنصار المذهب التهذيبى ، وهو القول الحق ورَأْىُ الفئة الغالبة ، وقد أسلفنا من الحجج والبراهين ما يؤيد ذلك . ومنهم من يرى أنه على رأى «مونتين» و يعده من شيعة المذهب المادى الأدبى . ومنهم من يقول انه على عقيدة بيكون وكومنيوس و يحشره فى زمرة الماديين الحسيين . وهناك فئة غير قليلة ترى أنه يشايع روسو و ينتصر للمذهب الطبعى فى التربية . والسر فى هذا الاختلاف أن لهذا المربى آراء كثيرة متفرقة فى كتبه ورسائله وكثير منها يشبه من بعض الوجوه آراء المربين الذين أسلفنا ذكرهم ، فنظر الناس الى هذه الآراء نظرة إجمالية من غير أن يميزوا بين الرئيس منها وغير الرئيس

فكان ذلك مثار الخلاف ومنشأ الحيرة فى معرفة مذهبه . ولو أنهم فكروا كثيراً فى آرائه الغالبة التى يجب أن يستخرج منها وحدها مذهبه ، وميزوا بينها وبين بعض آراء له مبعثرة فى مؤلفاته ، لوضح لهم السبيل ، وتبينوا أنه زعيم المذهب التهذيبى ونصيره .

حقاً إن آراءه تشبه آراء مونتين فى مواضع عدة ، ولكنا إذا وازنا بين الآراء الرئيسة لكل منهما وبحثنا فيها بحثا دقيقاً وجدنا فرقا كبيراً ، فكلا الرجلين يرى الفضيلة غاية التربية ، ولكنهما يختلفان اختلافاً واسعاً فى معناها وفى طريق الوصول اليها .

كذلك لا يصعب على الباحث أن يرى ما بينه وبين بيكون وكومنيوس من الخلاف فى الرأى ، فبينا نرى الأخيرين يدعوان إلى دراسة الموضوعات المختلفة لمادتها وقيمتها العلمية ، ويحرصان كل الحرص على دراسة العلوم الطبعية ، نجد الأول يدعو الى دراسة العلم لفائدته التهذيبية ، ولايحض — كما يفعلان — على دراسة العلوم الطبعية مع أنه كان من مهرة الأطباء .

أما مواضع الخلاف الرئيسة بينه وبين روسو ، فذلك أن روسو يرى ألا تقاوم الغرائز والميول الطبعية فى الإنسان ، وألا يحال بين النفس وما تميل اليهِ ، وألا يعمل المربون على تكوين العادات فى الطفل ، فان للعادات سلطاناً قهاراً يملك على الإنسان إرادته ويسلبهُ حريتهُ . أما لوك فيذهب الى القول بإخضاع غرائز الطفل ومقاومة ميوله الطبعية وتذليل نفسه تذليلاً ، ويرى أن التربية فى جميع وجوهها ليست الا تكوين عادات جسمية وفكرية وخلقية .